عندما لا تمطر السماء

ثلاثة أسئلة لا يطرحها أحدٌ جهرًا
هلِ الله ظالم؟ أهو صامت؟ أهو مختبئ؟

فيليب يانسي

ترجمة
سعيد فارس باز

OPHIR

أوفير
ophir

Originally published in the U.S.A. under the title:
«**Disappointment With God**».
Copyright © **1988 by Philip Yancey**.
Published by permission of Zondervan, Grand Rapids, Michigan.

عندما لا تمطر السماء

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٩
حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2009 By Ophir Printers and Publishers.
All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الاردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١/٣٥٧
ISBN 978-90-5950-071-6

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

مقدِّمة ١١

الكتاب الأوَّل: الله وراء الظِّلال
القسم الأوَّل– سماع الصَّمت

١. غلطةٌ مُميتة ٢٣
٢. كلُّ شيءٍ تلاشى ٣١
٣. الأسئلةُ التي لا يطرحها أحدٌ جهرًا ٤١
٤. ماذا لو؟ ٤٩
٥. المصدر ٥٧

القسم الثاني– إجراءُ الاتّصال: الآب

٦. مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر ٦٣
٧. الأب ٦٩
٨. ضوءُ شمسٍ غيرُ مُخفَّف ٧٥
٩. لحظةٌ مُشرِقة ٨٣

© ORHIR

١٠. النارُ والكلمة ٨٩
١١. المُحِبُّ المجروح ٩٥
١٢. أروعُ من أن يكونَ صحيحًا ١٠٣

القسم الثالث– الاقترابُ الأقرب: الابن

١٣. التنازُل ١١١
١٤. آمالٌ كبار ١١٧
١٥. التحفُّظُ الإلَهيُّ ١٢٥
١٦. المعجزةُ المؤجَّلة ١٣٣
١٧. التقدُّم ١٣٩

القسم الرابع– الانتِداب: الروح

١٨. تسليمُ الأمانة ١٤٩
١٩. تغيُّراتٌ في الريح ١٥٥
٢٠. التأوُّجُ (بلوغُ الذروة) ١٦٣

الكتاب الثاني: الرؤية في الظلام

٢١. مُقاطَعٌ ١٧٥

© OPHIR

٢٢. المشكلةُ الوحيدة ١٨٣

٢٣. دَورٌ في الكون ١٩١

٢٤. هلِ اللهُ ظالمٌ؟ ٢٠١

٢٥. لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التفسيرِ ٢١٥

٢٦. هلِ اللهُ صامتٌ؟ ٢٣١

٢٧. لماذا يُحجِمُ اللهُ عنِ التدخُّلِ ٢٤٥

٢٨. هلِ اللهُ مُختبئٌ؟ ٢٦٣

٢٩. لماذا ماتَ أيُّوبُ سعيدًا؟ ٢٧٣

٣٠. رهانانِ ومَثلان ٢٨٣

المراجع ٢٩٣

© OPHIR

1

غلطةٌ مُميتة

منذ نشر كتابي ''أين الله عندما أتألَّم؟'' تلقَّيتُ رسائل من أُناس خابت آمالهم بالله.

كتبت أُمٌّ شابَّة أنَّ فرحها انقلب مرارةً وحزنًا حين ولدت ابنةً مصابةً بتشوُّهٍ خَلقيٍّ في عمودها الفقريِّ يعرِّض حبلها الشوكيَّ للخطر. فصفحةً بعد صفحة، وبخطٍّ عنكبوتيٍّ دقيق، حكت كيف استنزفت الفواتير الطبِّيَّة مدَّخرات العائلة، وكيف تصدَّع زواجُها إذ بات زوجُها يمقت تكريسها كامل وقتها لابنتهما المريضة. وفيما تداعت حياتُها ركامًا حوالَيها، بدأت تشكُّ في ما سبق أن آمنت به بشأن إلهٍ محبّ. وقدِ التَمَستْ منِّي أيَّة نصيحة في حوزتي بإمكاني تقديمها.

وأفضى إليَّ شابٌّ شاذٌّ جنسيًّا بقصَّته شيئًا فشيئًا، في رسائل متتالية. فقد أمضى أكثر من عشر سنين ملتمسًا ''شفاء'' لتوجُّهه الجنسيِّ الشاذ، مجرِّبًا خدمات الشفاء الكاريزماتيَّة، و مجموعات الدعم المسيحيَّة، والعلاج بالأدوية. حتَّى إنَّه خضع لنوعٍ من العلاج التصحيحيِّ فيه عرَّض المُعالِجون النفسيُّون منطقته التناسُليَّة للصَّدمات الكهربائيَّة وهو يستجيب لصُوَر رجالٍ مُثيرة. إلاَّ أنَّ أيًّا من هذه لم ينفع. ثُمَّ استسلم أخيرًا لحياةِ مخالطةٍ مثليَّة مضطربة. وما يزال يكاتبني بين حين وآخر، مُصِرًّا على أنَّه يريد أن يتبع الله ولكنَّه يشعر بعدم الأهليَّة من جرّاء بليَّته المنكودة.

وكتبت إليَّ شابَّة، بشيءٍ من الإحباط، عن اكتئابها المستمرّ. وقد قالت إنَّه ما من سبب يدعوها إلى الاكتئاب. فهي جيِّدة الصحَّة، وذات راتبٍ حسن، ولها خلفيَّة عائليَّة مستقرَّة. ولكنَّها حين تستيقظ أغلبَ الأيّام، لا تستطيع أن تُفكِّر في سببٍ واحد يحملها على مواصلة الحياة. وهي لم تعُد تهتمُّ بالحياة أو بالله، حتَّى إنَّها إذا صلَّت كانت تتساءل أيُصغي إليها أحدٌ حقًّا.

هذه الرسائل وغيرها، ممَّا وصلني على مرِّ السنين، تُفضي كلُّها إلى السؤال الجوهريِّ عينه، مَصوغًا بطُرقٍ شتَّى. وهو يجري على نحوٍ كهذا: "كتابُك يتحدَّث عن الألم البدنيّ. ولكنْ ما قولُك في ألمٍ كألمي؟ أين الله عندما أُعاني عاطفيًّا؟ ماذا يقول الكتاب المقدَّس في هذا الشأن؟" وأنا أُجيب عن الرسائل بأفضل ما في وسعي، عالِمًا بحزنٍ أنَّ الكلمات المخطوطة على الورق لا تفي بالغرض. فهل تستطيع كلمة، أيَّةُ كلمة، أن تشفيَ جرحًا؟ ثُمَّ إنَّ عليَّ أن أعترف بأنَّني بعد قراءة تلك الأخبار المحزنة أطرحُ الأسئلة ذاتها. أين الله في خضمِّ ألمنا العاطفيّ؟ ولماذا يُخيِّب آمالنا أغلبَ الأحيان؟

إنَّ خيبة الأمل بالله لا تحصل فقط في الظروف المأساويَّة. فهي بالنسبة إليَّ تبرز على حين غرَّة في أحوال الحياة اليوميَّة المألوفة. فلن أنسى إحدى ليالي الشتاء المنصرم، ليلةً باردة رطبةً مزعجة من ليالي شيكاغو. كانت الريح تُولول، وجَمَدُ المطر يتساقط فيكسو الشوارع ثلجًا متلألئًا يُخالِطه القتام. تلك الليلةَ توقَّفت سيّارتي فجأةً في حيٍّ ينذر بالشؤم نوعًا ما. وإذ رفعتُ الغطاء وانحنيتُ فوق المحرِّك، كانَ جَمَد المطر يلسع ظهري كحصًى صغيرة، أخذتُ أُصلِّي مرارًا وتكرارًا: رجاءً، ساعِدني على تشغيل هذه السيّارة!

لم يُفلح أيُّ عبث بالأسلاك والأنابيب في تشغيل المحرِّك. ومن ثَمَّ قضيتُ الساعة التالية في مطعم خَرِب منتظرًا وصول شاحنة القطر. وإذ جلستُ على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ

وثيابي المبلَّلة تعصر حولي بركةً من الماء، تساءلتُ عن فكر الله بشأن بليَّتي. لا بدَّ أن يفوتني اجتماعٌ مُقرَّر تلك الليلة، وأُبدِّد ساعاتٍ كثيرة على مدى الأيَّام القليلة التالية محاولًا استجداء خدمة شريفة ومقبولة من محطَّة خدمات مُقامة لمساعدة السائقين المقطوعين. وهل يهمُّ الله أصلًا خيبتي أو تبديدُ طاقتي ومالي؟

شأني شأن تلك الشابَّة المُحبَطة من جرّاء اكتئابها، أشعر بالخزي لمجرَّد ذِكري صلاةً كهذه غير مستجابة. فيبدو أمرًا تافهًا وأنانيًّا، بل غبيًّا أيضًا، أن أُصلِّي لأجل تشغيل سيّارة. غير أنَّه تبيَّن لي أنَّ خيبات الأمل اليسيرة تميل إلى التراكُم عبر الزمن، مُقوِّضةً إيماني بسيلٍ ملتهب من الشكوك. فأبدأ بالتساؤل إنْ كان الله يعتني بتفاصيل الحياة اليوميَّة، وبي شخصيًّا. وأُجرَّب أن أُقلِّل من الصلاة، إذِ استنتجتُ مسبَّقًا بأنَّها لا تهمّ. أو لعلَّها تهمّ؟ ثُمَّ تضطرب مشاعري ويتزعزع إيماني. وما إن تدخل تلك الشكوك ساحتي، حتَّى أغدو أيضًا أقلَّ استعدادًا لمواجهة أزمنة الأزمات الكبرى. إحدى الجارات تموت بالسرطان، وأنا أُصلِّي لأجلها بحرارة. ولكنْ حتَّى وأنا أُصلِّي أتساءل. أيُمكن الوثوق بالله؟ إذا كان مقدارٌ وافر من الصلوات الصغيرة يبقى بلا استجابة، فماذا بشأن الصلوات الكبيرة؟

ذات صباحٍ في غرفة فندقٍ للمسافرين، شغَّلتُ التلفزيون، فإذا بوجهٍ عريض ذي غَبَب لمبشِّرٍ شهير يملأ الشاشة، ثمَّ يقول مُحملِقًا: "إنَّني غاضبٌ على الله غضبًا شديدًا!" وكان ذلك إقرارًا مدهشًا من رجُل أقام مهنة حياته على أساس "بذرة الإيمان" والثقة المطلقة بإلهٍ يُعنى بنا عنايةً شخصيَّة. غير أنَّه قال إنَّ الله قد خذله، ومضى يشرح ذلك، فقال إنَّ الله أمره ببناء مُجمَّع مبانٍ كبير للخدمة، إلاَّ أنَّ المشروع آل إلى خسارة ماديَّة كارثيَّة، ممَّا اضطرَّه إلى بيع معظم الممتلكات وإلغاء بعض البرامج. وقال إنَّه أدَّى دوره في الصفقة، ولكنَّ الله لم يقُم بدوره.

وبعد بضعة أسابيع، شاهدتُ المبشِّر عينه مرَّة أُخرى على شاشة التلفزيون، وكان هذه المرَّة يفيض إيمانًا واستبشارًا. وقد انحنى صوب الكاميرا، وارتسمت على وجهه

المكتنز ابتسامة عريضة، ومدَّ إصبعه باتِّجاه ملايين المشاهدين، قائلًا: "سيحدث لك أمرٌ جيِّد هذا الأُسبوع!" ماطَّ الكلمة "جيِّد" توكيدًا. وكان إذ ذاك في أحسن حالاته الترويجيَّة، فبدا مُقنِعًا للغاية. إنَّما بعد أيَّام قليلة، سمعتُ في الأخبار أن ابنه انتحر. ولم يسعني إلاَّ أن أتساءل عمَّا قاله ذلك المبشِّر لله في صلواته إبَّان ذلك الأُسبوع الفاجع الذي كان قد توقعه جيِّدًا.

يبدو أنَّ صراعاتٍ كهذه تكاد تهزأ بالشعارات الظافرة عن محبَّة الله وعنايته الشخصيَّة، تلك الشعاراتِ التي غالبًا ما أسمعها في الكنائس المسيحيَّة. ولكنَّ أحدًا ليس في مناعةٍ من دُوَّامة الخيبة الهابطة. فهي تعتري أناسًا مثل ذلك المبشِّر، وأُناسًا مثل كَتَبة تلك الرسائل، كما تُصيب مؤمنين عاديِّين: فأوَّلًا تحلُّ الخيبة، ثمَّ تنزرع بذرة الشكّ، ثم تحصل استجابة تتَّسم بالغضب أو الشعور بالخيانة. إذ ذاك نبدأ بالتساؤل: هل الله جدير بالثقة، وهل يمكننا حقًّا أن نستأمنه على حياتنا؟

ما برحتُ أُفكِّر في هذا الموضوع المتعلِّق بخيبة الأمل بالله مدَّةً طويلة، ولكنَّني تردَّدت في الكتابة عنه لسببين. أوَّلهما أنِّي علمتُ أنَّني سأُضطرُّ إلى مواجهة أسئلة ليس لها أجوبة سهلة، بل ربَّما ليس لها أجوبةٌ فعلًا. والثاني أنَّني لم أُرِد أن أكتب كتابًا من شأنه أن يُضعِف إيمان أيِّ شخص، بالتركيز على الإخفاق.

أعلمُ أنَّ بعض المؤمنين سيرفضون على الفور تعبيراتٍ من قبيل "خيبة الأمل بالله." فهم يقولون إنَّ مفهومًا كهذا خطأٌ بجملته. وقد قال المسيح إنَّ إيمانًا كحبَّة الخردل يستطيع أن ينقل الجبال، وإنَّ أيَّ أمرٍ يمكن أن يحدث إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة للصلاة معًا. والحياة المسيحيَّة حياةُ انتصارٍ وظفر. فالله يريد لنا أن نكون سُعَداء وأصحّاء وناجحين، وأيَّة حالة أُخرى خلاف ذلك إنَّما تُشير إلى قلَّة إيمان.

إنَّما في زيارةٍ لجماعة يؤمنون بهذا تمامًا، توصَّلتُ أخيرًا إلى التصميم على كتابة

هذا الكتاب. فقد كنتُ أبحث موضوع الشفاء الجسديِّ بناءً على تكليفٍ من إحدى المجلاَّت، وقادني الاستقصاء إلى كنيسةٍ سيّئة السمعة نوعًا ما مركزُها الرئيسيُّ في أرياف إنديانا. وكنتُ قد علمتُ بأمر تلك الكنيسة بالاطِّلاع على سلسلة مقالاتٍ نشرتها مجلَّة كبرى، وبمشاهدة برنامج تلفزيونيٍّ خاصٍّ بالموضوع.

كان أعضاء تلك الكنيسة يؤمنون بأنَّ في وسع الإيمان البسيط أن يشفي أيَّ مرض، وأنَّ التماس المعونة من أيِّ مصدر آخر، كالأطبّاء مثلًا، دليلٌ على قلَّة الإيمان بالله. وقد تحدَّثَتْ مقالات المجلَّة عن آباءٍ وأُمَّهات انتظروا يائسين فيما خاض أولادهم معارك خاسرة مع التهاب السحايا أو ذات الرئة أو حمَّى الإنفلونزا العاديَّة، وهي أمراضٌ كان يمكن أن تُعالَج بسهولة. وكان رسَّامٌ في تلك المجلَّة قد رسم على خريطة للولايات المتَّحدة إشارات قبور صغيرةً للدلالة على الأماكن التي تُوفِّي فيها أُناس بعد رفضهم العلاج الطبِّيَّ وفقًا لتعليم كنائسهم. وقد ظهر على الخريطة ما مجموعُه اثنان وخمسون قبرًا.

وبحسب التقارير فإنَّ حبالى من تلك الكنيسة تُوفِّين في أثناء ولادة أطفالهنَّ بمعدَّلٍ فاق النسبة القوميَّة بثمانية أضعاف، وكان الصغار معرَّضين للموت بنسبةٍ بلغت ثلاثة أضعاف المعتاد. ومع ذلك كانت تلك الكنيسة آخذةً في النموِّ، وقد أنشأت فروعًا في تسع عشرة ولاية وخمسة بلدانٍ أجنبيَّة.

زرتُ الكنيسة الأُمَّ في أنديانا ذاتَ يومٍ قائظ من شهر آب اللهَّاب، وقد تراقصت موجات الحرِّ على طرقات الأسفلت، وتهدَّلت أكواز الذُّرة المسفوعة على سُوقها في الحقول. وكان البناء قائمًا بغير معالم تدلُّ عليه وسط واحدٍ من حقول الذُّرة تلك، ضخمًا منعزلًا كحظيرةٍ في غير موضعها. وفي موقف السيّارات، كان عليَّ أن أستأذن دليلين يحمل كلٌّ منهما جهاز استقبال وإرسال. فقد كانت الكنيسة متوتِّرةً حيال الإعلام، ذلك لأنَّ بعض الأعضاء السابقين كانوا قد أقاموا دعاوى عليها منذ عهدٍ قريب.

ويُخيَّل إليَّ أنِّي توقَّعتُ رؤية ما يدلُّ على التطرُّف في أثناء الخدمة: عظة مُنوِّمة

مغنطيسيًّا ومُسبِّبة للإغماء يُلقيها واعظٌ ناريّ. إلاَّ أنَّني لم أرَ شيئًا من ذلك. فعلى مدى تسعين دقيقة، جلسنا في نصف دائرة كبيرة نُرنِّم ونُرتِّل وندرس الكتاب المقدَّس، وكان عددنا نحو سبع مئة.

وجدت نفسي بين قومٍ بُسَطاء. كانت النساء لابساتٍ فساتين أو تنانير، لا بناطيل، وكنَّ خفيفات الماكياج. أمَّا الرجال، وهُم مُرتدون قمصانًا وربطات عنق، فقد جلسوا مع عائلاتهم وساعدوا في ضبط الصِّغار.

أمَّا الأولاد فكانوا هُنا أكثر بروزًا منهم في معظم الكنائس، إذ تواجدوا في كلِّ مكان. فالحفاظ على الهدوء ساعةً ونصفًا يفوق قدرة الصغير على الاحتمال، وقد لاحظتُ الأهل يحاولون مجاراتهم، حيث توافرت دفاتر التلوين، ولاعبت الأُمَّهات صغارهنَّ بأصابعهم. حتَّى إنَّ بعضهنَّ أحضرن مجموعاتٍ نفيسة من الدُّمى واللُّعَب في مَحافِظ كبيرة الحجم.

لو جئتُ طالبًا الحماسة والإثارة، لرجعتُ خاليَ الوفاض. فقد شاهدتُ جانبًا من طريقة العيش الأميركيَّة القديمة، حيث العائلة التقليديَّة ما زالت حيَّةً ومُعافاة. والآباء والأُمَّهات هناك كانوا يحبُّون أولادهم، مثلهم مثل سائر الآباء والأُمَّهات على وجه الأرض.

إلاَّ أنَّ الخريطة التي عليها قبورٌ صغيرة وثبت إلى ذهني. فبعضٌ من هؤلاء الآباء والأُمَّهات كانوا قد جلسوا قرب أسرَّة صغارهم المُحتضَرين ولم يفعلوا شيئًا. وقد أخبر أحد الآباء مراسل المجلَّة كيف سهر مُصليًّا وهو يراقب ابنه ذا الخمسة عشر شهرًا يصارع الحُمَّى طوال أُسبوعين. وسبَّب له المرض الصَّمم أوَّلًا، ثُمَّ العمى. ولكنَّ قسِّيس الكنيسة حثَّ الأب على مزيدٍ من الإيمان بعد، وأقنعه بعدم استدعاء طبيب. وفي اليوم التالي تُوفِّي الولد. وقد كشف التشريح أنَّه مات من جرَّاء نوعٍ من التهاب السحايا علاجه سهل.

على العموم، لا يلوم أعضاء الكنيسة الإنديانيَّة الله على مصائبهم، أو على الأقلِّ

لا يُقِرُّون بأنَّهم يفعلون ذلك. ولكنَّهم بدلًا من ذلك يلومون أنفسهم على ضعف إيمانهم. وفي تلك الأثناء، تتضاعف شواهد القبور.

لقد غادرتُ خدمة ذلك الأحد ولديَّ اقتناعٌ راسخ بأنَّ ما نفكِّر فيه ونؤمن به من جهة الله مهمٌّ- حقًّا مهمٌّ- شأنه شأن أيِّ أمرٍ آخر في الحياة. ولئن لم يكُن أُولئك القوم غيلانًا ولا قَتَلة أطفال، فإنَّ بضع عشرات من أولادهم ماتوا بسبب خطإٍ لاهوتيٍّ، كما أعتقد. (في الواقع أنَّ تعليم كنيسة إنديانا لا يختلف كثيرًا عمَّا أسمعه في كثيرٍ من الكنائس الإنجيليَّة، وعبر المحطَّات التلفزيونيَّة والإذاعيَّة الدينيَّة، والفرق أنَّ أولئك إنَّما يُطبِّقون وعود الإيمان القصوى بمنتهى الإخلاص).

فبسببٍ من أولئك القوم المُخلِصين في إنديانا، فضلًا عن المتسائلين الذين كاتبوني، قرَّرت أن أتصدَّى لقضايا تُراوِدني إلى حدٍّ بعيد تجربةُ تجنُّبها. من هنا كان هذا الكتاب ذو الطابع اللاهوتيّ. فهو ليس كتابًا تِقنيًّا بأيِّة حال، بل كتابٌ عن طبيعة الله وأسباب تصرُّفه أحيانًا بطُرق مُحيِّرة، وعدم تصرُّفه أحيانًا أخرى.

لا نتجاسر على حصر البحث اللاهوتيّ في مقاهي مدارس اللاهوت، حيث يخوض الأساتذة والطلاَّب جولات المنازلة الفكريَّة. فالمسائل اللاهوتيَّة تؤثِّر فينا جميعًا. ومن الناس مَن يفقدون إيمانهم من جرّاء شعور حادٍّ بالخيبة من جهة الله. فهُم يتوقَّعون من الله أن يتصرَّف بطريقة معيَّنة، وإذا به "يخذلهم". أمَّا آخرون فربَّما لا يفقدون إيمانهم، ولكنَّهم يختبرون بدورهم شكلًا من أشكال الخيبة. إذ يؤمنون بأنَّ الله سيتدخَّل، ويُصلُّون لأجل معجزة، فترتدُّ صلواتهم غيرَ مستجابة. وقد حصل ذلك على الأقلِّ اثنتين وخمسين مرَّة، وحدث بالطريقة عينِها في تلك الكنيسة الإنديانيَّة.

١

كلُّ شيءٍ تلاشى

عصرَ ذاتِ نهار، رنَّ هاتفي، وعرَّف المُتَّصل نفسَه بأنَّه طالب لاهوت في كليَّة ويتُن العُليا، قائلًا: "اسمي رشيد. لم أُقابلك يومًا، ولكنِّي أشعر بأنَّ بيني وبينك قرابة، بسبب بعض كتاباتك. ألديك دقيقة؟"

ثمَّ مضى رشيد يُحدِّثني عن حياته. فقد صار مسيحيًّا حقيقيًّا في أثناء دراسته الجامعيَّة، حيث صادقه أحدُ المؤمنين وعرَّفه بالإيمان. ولكنَّ رشيدًا لم يكد يتكلَّم كمؤمنٍ حديث. فمع أنَّه طلب توجيهاتي بشأن كُتب مسيحيَّة، تبيَّن لي أنَّه قد قرأ كلَّ كتابٍ ذكرته له. وجرت بيننا محادثة سارَّة تعدَّدت اتجاهاتها، إلاَّ أنَّني لم أعرف قصده الفعليَّ من الاتِّصال بي إلاَّ في نهاية المخابرة.

قال بعصبيَّة: "يشقُّ عليَّ أن أُزعجك بهذا الأمر. أعرف أنَّك ربَّما كنت مشغولًا، ولكنِّي أودُّ أن أطلب منك معروفًا. لقد كتبتُ بحثًا حول سفر أيُّوب، وقال لي أُستاذي إنَّه ينبغي لي أن أكتب كتابًا نواتُه ذلك البحث. فهل من سبيل لإلقاء نظرة على البحث وإطْلاعي على رأيك فيه؟"

نزلتُ عند رغبته، ووصلني النص الأولي في غضون بضعة أيَّام. وفي الواقع أنَّني لم أتوقَّع بحثًا مميَّزًا. فالأبحاث التي يعدُّها الطلاَّب الجامعيُّون ليست مشوِّقة للقراءة غالبًا،

وقد شككتُ في أن يتمكَّن شابٌّ حديث العهد بالإيمان نسبيًّا من الطلوع بتبصُّراتٍ جديدة حول سفر أيُّوب المُثبِّط للهمَّة. غير أنَّني كنتُ على خطأ. فقد كشفَ النص الأولي عن موهبة واعِدة حقًّا. وعلى مدى الأشهر القليلة التالية تناقشتُ مع رشيد عبر الهاتف والبريد عن إمكانية إعادةِ صياغة البحث ليصير كتابًا.

وبعد مضيِّ سنة، أكمل رشيد النص الأولي وحصل على عقدٍ مُوقَّع، فاتَّصل بي يسألني إنْ أمكن أنْ أكتب مقدِّمة لكتابه. ومع أنَّني لم أكن قد قابلتُه بعد، فقد راقتني حماسته، وهو قد كتب كتابًا في وسعي أن أضع عليه ختم مصادقتي بلا تردُّد.

ثمَّ مرَّت ستَّة أشهرٍ خضع الكتاب في أثنائها للتنقيح والمراجعة بصورة نهائيَّة. ولكن قُبيلَ موعد النشر، اتَّصل بي رشيد مرَّةً أُخرى بعد. وقد بدا صوتُه مختلفًا، إذ كان حادًّا وأجشًّا. وقد أدهشني تجنُّبه الأسئلةَ المتعلِّقة بكتابه الوشيك، قائلًا: "ينبغي أن أراك يا فيليب. فثمَّة أمرٌ أشعر بأنَّني مُلزَم أن أُطلِعك عليه، وينبغي أن يجري ذلك وجهًا لوجه. فهل يمكنك أن تستقبلني عصرَ أحد الأيَّام من هذا الأُسبوع؟"

تدفَّقت أشعَّةٌ من الشمس حارَّةٌ وباهتة إلى داخل شقَّتي الواقعة في الطابق الثالث. كانت الأبواب مفتوحة والذباب يطنُّ داخلًا و خارجًا. وجلس رشيد على أريكة قبالتي، مرتديًا بنطلونًا قصيرًا وقميصًا (تي-شيرت)، ونُقاط العرق تبرق على جبهته. لقد ساق سيّارته ساعةً في زحام شيكاغو الخانق للقائي، وأوَّل كلِّ شيء تجرَّع كأس شايٍ مثلَّج لعلَّه يبترد.

كان رشيد نحيفًا وصاحب جسمٍ رياضيٍّ منحوتٍ بتناسق. أمَّا وجهه النحيل وشعره القصير فقد جعلاه يبدو أشبه براهبٍ تنتابه هواجسُ متعلِّقة بالله تنمُّ عنها ملامُحه الحادَّة المتوتِّرة. وإذا كانت لغة الجسد تتكلَّم، فإنَّ حركات جسمه بَدَت فصيحةً جدًّا: إذ كانت قبضتاه تنضمَّان وتنفرجان، ورجلاه السمراوان تتصالبان وتتباعدان،

وعضلات وجهه تَنشدُّ كثيرًا من جرَّاء التوتُّر.

تحدَّث باقتضابٍ دون مقدِّمات، قائلًا: ”من حقِّك أن تغضب عليَّ جدًّا. ولا ألومك أبدًا إن شعرتَ بأنّك قد خُدِعت“.

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن قصده. فسألت: ”بشأنِ ماذا؟“ ”حسنًا إليك الحقيقة. إنَّ الكتاب الذي ساعدتَني فيه سوف يصدر الشهرَ التالي، وفيه مقدِّمتك. ولكنَّني بالحقيقة لم أعُد أُومن بما كتبتُه في ذلك الكتاب، وأرى أنَّني مدينٌ لك بتفسير“.

ثمَّ توقَّف هُنيهةً، ولاحت لي أخاديد التوتُّر على وجهه. وما لبث أنِ اندفع قائلًا: ”إنَّني أكره الله! لا، لستُ أعني ذلك. بل إنَّني لا أُومِن به أيضًا“.

لم أنبس ببنتِ شفة. وفي الواقع أنَّني قلَّما تكلَّمتُ على مدى الساعات الثلاث التوالي فيما رشيد يُخبرني بقصَّته، مبتدئًا من انفصال أبويه. قال: ”لقد بذلتُ كلَّ جهدي للحيلولة دون طلاقهما. كنتُ قد قبلتُ الإيمان المسيحيَّ حديثًا في الجامعة، وقد بلغت سذاجتي حدًّا جعلني أُصدِّق أنَّ الله يعنيه أمري. فأخذتُ أصلِّي بلا انقطاع ليل نهار حتَّى يعودا أحدُهما إلى الآخر. حتَّى إنَّني توقَّفتُ عن الدراسة مدَّةً و ذهبتُ إلى دياري محاولًا إنجاد عائلتي. وظننتُ أنَّني أعمل بمشيئة الله، لكنَّني على ما أعتقد جعلتُ الوضعَ أردأ. وكان ذلك أوَّل اختبارٍ مُرٍّ لي مع الصلاة غير المستجابة.

”انتقلتُ إلى كلِّيَّة ويتُن كي أتعلَّم المزيد عن الإيمان. وتصوَّرتُ أنَّني لا بدَّ أنْ أكون قد ارتكبت خطأً ما. وفي ويتُن قابلتُ أشخاصًا يستخدمون عباراتٍ مثل: «تكلَّمتُ مع الله» و«قال لي الربّ». وكنتُ أحيانًا أتكلَّم على ذلك النحو أيضًا، غير أنَّ شعورًا بالذنب كان يَخزُني كلَّ مرَّة. أحقًّا قال الربُّ لي شيئًا ما؟ ما سمعتُ صوتًا قطُّ، ولا كان لي أيُّ بُرهانٍ على الله استطعتُ رؤيته أو لمسه. وعلى الرغم من ذلك كنتُ أتوق إلى ذلك النوع من القُرب.

”وكلَّما واجهتُ قرارًا حاسمًا، كنتُ أقرأ الكتاب المقدَّس وأُصلِّي ملتمسًا

الإرشاد، كما هو مُفترَض. ومتى شعرتُ بصحَّة قرارٍ ما، كنتُ أتصرَّف بمقتضى ذلك. غير أنَّني أُقسِم إنِّي بتُّ أتَّخذ القرار الخطأ كلَّ مرَّة. فحين أعتقد أنَّني فهمتُ مشيئة الله حقًّا، حينئذٍ كان الأمر يرتدُّ إلى نحري".

تناهى إلينا ضجيج الشارع، وكان في وسعي أن أسمع وقع أقدام الجيران وهم يصعدون أو ينزلون على الدرج. ولكنَّ تلك الأصوات لم تُلهِ رشيدًا. فظلَّ يتكلَّم، وأنا أُومئ برأسي موافقًا أحيانًا، مع أنِّي كنتُ ما أزال غيرَ فاهمٍ سبب هجومه المباغت على الله بشكلٍ عنيفٍ تقريبًا. ذلك أنَّ عائلاتٍ كثيرةً تنهار، وصلواتٍ كثيرة لا تُستجاب. فماذا كان المصدر الحقيقيّ لسخطه المُتأجِّج؟

أخبرني تاليًا عن فرصةِ عملٍ أفلتت من يده، حيث نكث ربُّ العمل بوعدٍ قطعه له ووظَّف شخصًا أدنى أهليَّةً، ممَّا حرمه فرصة الوفاء بديونٍ تراكمت عليه للكليَّة وأبقاه بغير مصدرٍ للدخل. في ذلك الحين تقريبًا نبذته خطيبته، فقطعت الاتِّصال به دون إنذار، رافضةً تقديم أيِّ تفسير لتحوُّل عاطفتها المفاجئ. وكانت خطيبته شيرين قد أدَّت دورًا أساسيًّا في نموِّه الروحيّ. فإذ تركته، أحسَّ بشيءٍ من إيمانه يُفارِقه أيضًا. وكانا كثيرًا ما صلَّيا معًا لأجل مستقبلهما، فإذا بتلك الصلوات آنذاك تبدو أشبه بنكاتٍ سمجة.

كذلك أُصيب رشيد أيضًا بجملةٍ من المشاكل الصحِّيَّة، لم تؤدِّ إلاَّ إلى مضاعفة شعوره باليأس والبؤس. وإذا بجراح الرفض التي عاناها حين انفصل أبواه تنفتِح ثانيةً على ما يبدو. فهل كان الله يُماطِله ويخدعه، شأنه شأن شيرين؟ إذ ذاك قصد قسِّيسًا، ملتمسًا النُّصح. وقد شعر شعورَ إنسانٍ يغرق، كما قال. أراد أن يثق بالله، ولكنَّه كلَّما مدَّ يده حصد الريح. فلماذا ينبغي له أن يظلَّ مؤمنًا بإلهٍ غير معنيٍّ بمصلحته على ذلك النَّحو الواضح؟

لم يكدِ القسِّيس يُبدي أيَّ تعاطُفٍ، وأحسَّ رشيد بشكلٍ جليٍّ أنَّ شكاويه لم ترقَ إلى مستوى زبائنِ الرجل المألوفين من ذوي الزيجات المنهارة ومرضى السرطان والمدمنين وآباء الأولاد المتمرِّدين وأُمهاتهم. وقد قال له القسِّيس بابتسامةٍ مستعلية:

"عندما يصلح الأمر بينك وبين خطيبتك، يصلح أمرك مع الله أيضًا".

ففي نظر رشيد، لم تكن المشاكل يسيرة ولا بسيطة. إنَّه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يدعه أبٌ سماويٌّ محبٌّ يعاني مثل تلك الخيبة المرَّة. فما من أبٍ أرضيٍّ يعامل ابنه مثل تلك المعاملة. وقد ظلَّ يذهب إلى الكنيسة، ولكنْ بدأت تتكوَّن في داخله غصَّةُ سخريةٍ قاسيةٌ على شكل ورم من الشكّ. فالمفاهيم اللاهوتيَّة التي تعلَّمها في الكلِّيَّة وكتب عنها في كتابه لم تعُد مُفيدةً في نظره.

وقد قال لي رشيد: "أمرٌ غريب! ولكنْ كلَّما تضاعف الغضب الذي صببتُه على الله، تضاعفت الطاقة التي بدا أنَّني أكتسبُها. لقد أدركتُ أنَّني على مدى بضعة الأعوام الأخيرة انكمشتُ داخل ذاتي. والآن، إذ بدأتُ أشكّ، بل أيضًا أُبغض الكلِّيَّة والمؤمنين الآخرين حوالي، شعرتُ بنفسي أعود إلى الحياة من جديد".

ولكنْ ذاتَ مساء جاءتِ القشَّة التي قصمت ظهر البعير. فقد حضر رشيد خدمةً مسائيَّة في أحد أيام الآحاد، حيث استمع إلى الشهادات الشخصيَّة المعتادة والتسابيح، إلاَّ أنَّ خبرًا واحدًا على الخصوص أثار حفيظته. ففي وقتٍ سابقٍ من ذلك الأُسبوع كانت قد تحطَّمت طائرة تحمل تسعة مرسلين في خلاء ألاسكا فقُتل كلُّ مَن كان على متنها. وقد حكى القسِّيس التفاصيل بهابة، ثمَّ عرَّف الحضور بعضوٍ من كنيسة أُخرى كان قد نجا من حادث تحطُّم طائرةٍ آخر في الأُسبوع عينه. ولمَّا انتهى ذلك العُضو من وصف نجاته بأُعجوبة، استجاب الجمهور قائلين: "حمدًا للرّب!"

وصلَّى القسِّيس قائلًا: "يا ربّ، نشكرك على إيصال أخينا بالسلامة وعلى حراسة ملائكتك له. ونرجو منك أن تكون مع عائلات أُولئك الذين ماتوا في ألاسكا". فأثارت تلك الصلاة اشمئزاز رشيد، مُسبِّبةً له ما يُشبِه الغثيان، وفكَّر: لا يمكن أن تمسك العصا من كِلا الطرفَين. فإذا تلقَّى الله الحمد على سلامة الناجي، فينبغي أيضًا أن يُلام على سقوط الضحايا. غير أنَّ الكنائس لا تستمع أبدًا إلى شهاداتٍ يُقدِّمها المفجوعون. ماذا تقول زوجات المُرسَلين المُتوفَّين؟ هل يتحدَّثن عن "أبٍ مُحِبّ"؟

ثمَّ عاد رشيد إلى شقَّته مضطربًا جدًّا. وقد كان كلُّ شيءٍ يصبُّ في خانةٍ واحدة: "هلِ الله موجودٌ حقًّا؟" فهو لم يرَ بيِّناتٍ مُقنِعة.

عند تلك النُّقطة، قطع رشيد حكايته. وكانتِ الشمس قد توارت وراء مبنًى كبير في الناحية الغربيَّة، مُخفِّفةً قليلًا من ظِلال الغرفة وأشعَّة الضياء. فأغمض رشيد عينيه وعضعض شفته السُّفلى، وضغط بإبهامَيه على عينيه ضغطًا شديدًا. وبدا أنَّه يحاول تكوين صورة ذهنيَّة ويجهد أن يجعلها صحيحة.

سألتُه: "ماذا جرى تاليًا؟ أكانت تلك هي الليلة التي فقدتَ فيها إيمانك؟" وكانت قد مرَّت بضع دقائق صامتة.

فأومأ برأسه، واستأنف الكلام، إنَّما بلهجةٍ أخفَّ حدَّة: "ظللتُ ساهرًا إلى وقتٍ متأخِّر تلك الليلة، بعد وقت طويل من إخلاد جيراني إلى النَّوم- أنا أسكن في شارع هادئ بالضواحي- وبدا لي كما لو كنتُ وحيدًا في العالم. وشعرتُ بأنَّ أمرًا مهمًّا يوشك أن يحدث. لقد كنتُ مُتألِّمًا. فمرارًا وتكرارًا خذلني الله. أبغضتُ الله، ومع ذلك كنتُ خائفًا أيضًا. كنتُ طالب لاهوت، صحيح! ربَّما كان الله موجودًا، ونظرتي إلى الأُمور خاطئة. كيف يمكن أن أعلم؟ ثُمَّ راجعتُ اختباري المسيحيَّ كلَّه، من أوَّل الطريق تمامًا.

"تذكَّرتُ أوَّل بارقة إيمان لمَّا كنتُ في الجامعة. آنذاك كنتُ صغير السنِّ ومنكشفًا. ولعلِّي كنتُ قد تعلَّمتُ بعض العبارات المتفائلة وأقنعتُ نفسي بأن أُومن «بحياةٍ فيّاضة». وربَّما كنتُ أُقلِّد الآخرين وأسعى لأن أعيش اختباراتهم. فهل ضلَّلتُ نفسي بشأن الله؟

"إلاَّ أنَّني تردَّدتُ في التخلِّي عن كلِّ ما آمنتُ به. وقد شعرتُ بأنَّ عليَّ أن أُتيح لله فرصةً أخيرة بعد.

"صلَّيتُ تلك الليلة بحرارةٍ وإخلاص حسب معرفتي. صلَّيتُ جاثيًا على

ركبتيَّ، وصلَّيتُ منبطحًا على الأرضيَّة المُغشَّاة بخشب السنديان. قلتُ: «اللهمَّ! هل يعنيك أمري حقًّا؟ لا أُريد أن أقول لك كيف تُدير عالمك، ولكنْ رجاءً أعطني علامةً ما على أنَّك موجود فعلًا! هذا هو كلُّ ما أسأله».

"مضت أربع سنين وأنا أُجاهد في سبيل «علاقة شخصيَّة بالله»، كما درج القول. ومع ذلك عاملني الله أسوأ من معاملته أيَّ واحد من أصدقائي. آنذاك تقلَّص كلُّ شيء إلى سؤال أخير واحد: كيف يمكنك أن تُقيم علاقة شخصيَّة إذا لم تكن متيقِّنًا بمجرَّد وجود الشخص الآخر؟ وفي ما خصَّ الله، لم يتأتَّ لي التيقُّن قطّ".

"صلَّيتُ نحو أربع ساعات. وقد شعرتُ تارةً بأنَّني مُغفَّل، وتارةً بأنَّني مُخلِصٌ تمامًا. وراودني إحساسُ القفز من على حافةٍ إلى قلب الظلام بغير أن تكون لي أدنى فكرة عن مكان هبوطي المحتمَل. فإنَّ ذلك كان بيد الله".

"أخيرًا، الساعةَ الرابعة صباحًا، عدتُ إلى رشدي. لم يكُن أيُّ شيء قد حدث، ولم يُجاوِبني الله. فلماذا أستمرُّ في تعذيب نفسي؟ لماذا لا أنسى الله فحسبُ وأُتابع حياتي، شأني شأن معظم الناس؟"

"وفي الحال شعرتُ بإحساسِ انفراجٍ وتحرُّر، كما لو كنتُ قد نجحتُ توًّا في امتحانٍ نهائيّ، أو نلتُ إجازةً في قيادة السيّارات. لقدِ انتهى الصِّراع، وعادت حياتي مِلكَ يدي".

"يبدو لي الأمر الآن سخيفًا، ولكن إليك ما فعلتُه تاليًا. فقد التقطتُ كتابي المقدَّس وكتابين مسيحيَّين آخرين وهبطتُ الدرج خارجًا إلى الفِناء الخلفيّ، حيث أغلقت الباب ورائي بهدوء لئلاّ أُوقظ أحدًا. وكان في الفِناء كانونٌ للشواء، فكدَّستُ الكُتب فوقه، ورششتُ عليها شيئًا من سائل الإشعال، وأضرمتُها بعود ثقاب. كانت ليلة غاب فيها القمر، فتراقصت ألسنة اللهب عاليةً ومُتأجِّجة. وإذا بآيات الكتاب المقدَّس وشذرات اللاهوت تنفتل وتسودُّ ثُمَّ تتحلَّل كُتلًا من الرماد يتهادى بعضُها نحو العلاء. وقد كان إيماني يتصاعد معها.

"صعدتُ إلى شقَّتي مرَّةً أخرى، وأنزلتُ للمرَّة الثانيةِ ملءَ ذراعيَّ كُتبًا. وقد فعلتُ ذلك نحو ثماني مرَّات في أثناء الساعة التالية. فإذا بكتب التفسير وكتب الدراسة اللاهوتيَّة، ومسوَّدة كتابي عن أيوُّب، تتلاشى كلُّها مع الدُّخان. وربَّما كان من شأني أن أحرق كلَّ كتابٍ في حوزتي لو لم يُقاطِعني رجُل إطفاء غاضب يرتدي مُشمَّع مطر أصفر ركض نحوي صائحًا: "ماذا تحسب نفسك فاعلًا؟" فإنَّ أحدهم كان قد اتَّصل بدائرة الإطفاء منبِّهًا. وحاولتُ مرتبكًا التماس عذرٍ ما، حتَّى قلتُ له أخيرًا إنَّني كنت أُحرِق بعض القُمامة فحسب.

"بعدما بخَّ الإطفائيُّ مادَّة كيماويَّة على مشعلتي وهال عليها بعض التُّراب، أطلق سراحي. فصعدتُ الدرج واندسَستُ في سريري ورائحة الدُّخان تفوح منِّي. كان الفجر قد بزغ آنذاك، وأخيرًا شعرتُ بالسلام. فإنَّ حِملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلي. وقد كنتُ صادقًا مع نفسي، بعدما تخلَّصتُ من كلِّ تظاهُر، ولم أعُد أُحِسُّ بالضغط الذي يَضطرُّني إلى الإيمان بما لم أستطع قطُّ أن أتحقَّق منه. لقد شعرتُ بالتحوُّل... غير أنَّه كان تحوُّلًا عن الله".

أنا مسرور لأنَّني لا أكسب عيشي كمرشد محترف. فعندما أجلس مقابل شخص مثل رشيد يُفضي إليَّ بدخيلة نفسه، لا أدري أبدًا ما أقول. وعصرَ ذلك النهار، لم أتكلَّم كثيرًا. وربَّما كان ذلك هو الأفضل. فما كان من المفيد أن أنتقد "الامتحانات" التي ابتكرها رشيد لله.

وقد كان رشيد قلقًا بصورة خاصَّة من جهة كتابه عن أيوُّب، ما دام سيصدر خلال الأسابيع القليلة التالية. وقال إنَّ الناشر علم بتغيير فكره، ولكنَّ الطبعة الأُولى باتت في طور الطباعة. فطمأنتهُ إلى أنَّ مصادقتي على الكتاب ما تزال سارية. ذلك أنِّي صادقت على مضمون الكتاب، أكثر من مصادقتي على صلته الشخصيَّة به. وقلتُ له:

"ثُمَّ إنَّني بكلِّ يقين قد غيرتُ رأيي بشأن بعض الأُمور التي كتبتُها في السنين العشر الأخيرة".

كان رشيد مُنهَكًا بعدما تكلَّم طويلًا، ولكنَّه بدا أكثرَ ارتياحًا لمَّا نهض لينصرف. وقال: "ربَّما بدأت جميع مشاكلي بدراستي لسِفر أيُّوب. فقد كان أيُّوب يروقني، إذ لم يخشَ أن يكون صادقًا تجاه الله. لقد واجه الله بحدَّة. ولكنِّي أعتقد أنَّ الفرق بيننا كامنٌ في ما حصل في آخِر المطاف. فقد تراءى الله لأيُّوب، بعد كلِّ معاناته. إلاَّ أنَّه لم يتراءَ لي".

آنذاك أضاءت خليَّة كهرضوئيَّة أنوار الدرج، بعدما كان الغسق قد حلّ. وإذ صافحني رشيد مودِّعًا وتوارى نازلًا الدرج، استبدَّ بي الحزن الشديد. لقد كان شابًّا أسمر مُعافى. ومن شأنِ بعضهم أن يقولوا إنَّه لا سبب وجيهًا يدفعه إلى اليأس. ولكنَّني إذ أصغيتُ إليه، وراقبتُ قبضتَي يدَيه وأخاديد التوتُّر على وجنتَيه، أدركتُ أخيرًا مصدر غيظه.

لقد كان رشيد يشعر بألم مُبرِّح كأيِّ ألم يعانيه كائنٌ بشري: ألم الخيانة... ألم حبيبٍ يستيقظ فيُدرك فجأةً أنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى. فهو وضع حياته بيد الله، ولكنَّ الله خذله.

OPHIR

٣

الأسئلةُ التي لا يطرحها أحدٌ جهرًا

إنَّ الأسئلة الأهمّ، تلك التي تهيم في جوٍّ من الغموض مدَّةً طويلة من حياتنا، قد تتبلور أحيانًا في لحظة واحدة. وقد وفَّرت لي زيارة رشيد مثل هذه اللحظة. صحيحٌ أنَّ شكاويه لا تكاد تُحسَب في عداد خيبات الأمل الكُبرى، إذ لم تتعدَّ انهيار الأُسرة والمشكلات الصحِّية وهجران الحبيبة وفقدان الوظيفة، ولكنَّ تلك الليلة التي قضاها بقرب كانون الشواء- بحسميَّة مسرحيَّة - أضرمتِ الشكوك التي تؤرِّق مُعظمَنا. أيهمُّ الله أمرُنا حقًّا؟ إن كان نعم، فلماذا لا يتنازل إلينا ويُصلح الأُمور التي تسوء، أو بعضَها على الأقلّ؟

إذِ استولى على رشيد غضبُه وألمُه، لم يُصغِ إلى شكوكه بطريقة منهجيَّة، بل اختبرهَا كمشاعر خيانة وخذلان أكثر منها كمسائل إيمان. ولكنَّني إذ تأمَّلتُ محادثتنا، ما برحتُ أرجع إلى ثلاثة أسئلة كبرى بشأن الله بدا أنَّها كامنةٌ تمامًا وراء دغل مشاعره. وكلَّما أمعنتُ النظر في هذه الأسئلة، ازداد يقيني بأنَّها تستقرُّ في مكانٍ ما داخلَنا جميعًا. ومع ذلك فإنَّ قليلين من الناس يطرحونها جهرًا، لأنَّها تبدو قلَّةَ أدب في أحسن الأحوال وهرطقةً في أسوإها.

هلِ الله ظالم؟ حاول رشيد أن يتبع الله، ولكنَّ حياته انهارت على كلِّ حال. فلم يستطيع أن يوفِّق بين بلاياه ووعود الكتاب المقدَّس بالثواب والسعادة. وما القول في

أُولئك الذين ينكرون الله علانيةً ومع ذلك ينجحون ويُفلِحون؟ هذه شَكاةٌ قديمةٌ قِدَم أيوُّب والمزامير، ولكنَّها تبقى حجر عثرة في سبيل الإيمان.

هلِ الله صامت؟ توسَّل رشيد إلى الله ثلاث مرَّات طالبًا إرشاده الواضح، وذلك حين واجه قرارات حاسمةً تتعلَّق بدراسته ومهنته وحياته العاطفيَّة. وقد حسب كلَّ مرَّة أنَّه أُوتي تصوُّرًا لمشيئة الله، ليتبيّن فقط أنَّ خِياره آل إلى الفشل. وقد سأل رشيد: "أيُّ أبٍ هو؟ أيستمتع برؤيتي أسقط على وجهي؟ لقد قيل لي إنَّ الله يحبُّني وإنَّ لديه خطَّةً رائعة لحياتي. حسنًا! إذًا لماذا لا يقول لي ما هي تلك الخطَّة؟"

هلِ الله مُختبئ؟ هذا السؤال، قبل سواه، كان هاجسَ رشيد. وقد بدا له أمرٌ أنَّ على الله إثباتَ ذاته بطريقةٍ من الطُرق، نهايةً صُغرى لا يمكن تقليصُها، أو نُقطةً لاهوتيَّة جوهريَّة. "كيف يمكنني إنشاءُ علاقةٍ بشخص لستُ متيقِّنًا بمجرَّد وجوده؟" إلاَّ أنَّه بدا أنَّ الله يختبئ عمدًا حتَّى عنِ الأشخاص الذين يبحثون عنه. ولمَّا لم تؤتَ صلاةُ رشيد وسهرُه حتَّى وقتٍ متأخِّر من الليل أيَّةَ استجابة، ما كان منه إلاَّ أن أشاح بوجهه عنِ الله.

كثيرًا ما فكَّرتُ في هذه الأسئلة في أثناء مهمَّة كتابيَّة بأميركا الجنوبيَّة. ففي بيرو، أقلَّني مُرسَل طيّار إلى قرية صغيرة من قرى هُنود شِيبيبو. وقد هبط بالطائرة العوَّامة، ودرج بها إلى ضفَّة النهر، ثمَّ اصطحبني على دربٍ وسط الأدغال إلى "الشارع" الرئيسيِّ في البلدة، وكان طريقًا ترابيًّا يحفُّ به اثنا عشر كوخًا مبنيَّةً على ركائز ومسقوفة بسعف النخيل. وكان سبب أخذي إلى هناك إطلاعي على أحوال كنيسة مزدهرة عمرُها أربعون سنة. ولكنَّ دليلي أراني أيضًا شاهدةً من غرانيت إلى جانب الطريق الرئيسيِّ، وأخبرني بقصَّة المُرسَل الشابِّ الذي أسهم في تأسيس الكنيسة.

بعد نوبةٍ مفاجئة من التقيُّؤ والإسهال، تُوفِّي ابنُ المرسل ذو الستَّة أشهر، فبدا أنَّ ذلك المرسل الشابَّ أخذ ينهار. وقدِ اقتطع بيده شاهدةً من الصخر المحلِّيِّ، هي تلك الشاهدة التي كنَّا ننظر إليها، ودفن جثَّة الولد، وغرس شجرةً قرب قبره. وعند اشتداد

الحرِّ كلَّ نهار حين يطلب سائر الناس الظلّ، كان المرسل يمشي إلى النهر ويُحضِر جرَّة ماء لأجل الشجرة، ثُمَّ يقف على مقربة من القبر، وظلُّه يترامى فوقه، كما لو كان يحميه من حرارة الشمس الاستوائيَّة اللاهبة. وقد حاولت زوجتُه وأعضاء الكنيسة الهنود والمرسلون الآخرون أن يُعَزُّوه، ولكنَّهم عبثًا فعلوا.

وأخيرًا مرض المُرسَل نفسُه. وقد خُولِط في عقله، وعانى إسهالًا مستمرًّا. فأُقِلَّ بالطائرة إلى ليما، حيث فحصه الأطبّاء بحثًا عن أيَّة علامة على وجود أميبا أو غيرها من المسببات المرضية المحتملة في المناطق الاستوائية، ولكنَّهم لم يجدوا شيئًا. ولم ينفع أيُّ دواء استعملوه. فشخَّصوا مشكلته على أنَّها "إسهال هستيريٌّ" وأعادوه مع زوجته إلى الولايات المتَّحدة.

فيما وقفتُ بقرب شاهدة الغرانيت المُفتَّتة، وقد باتت النِّسوة يستعملنها مسندًا لجرارهنَّ، حاولتُ وضع نفسي مكان ذلك المرسل الشابّ. وتساءلتُ عمَّا صلاَّه وهو واقفٌ هناك تحت شمس الظهيرة، في حين ظلَّت أسئلة رشيد الثلاثة تخطر في بالي. وقد قال دليلي إنَّ ذلك المُرسَل عانى العذاب من جرّاء مسألة الظُّلم والإجحاف. فابنُه لم يرتكب أيَّ خطأ، وهو أتى بعائلته لخدمة الله في الأدغال... أكان ذلك ثوابه؟ وقد صلَّى أيضًا ملتمسًا علامةً ما على حضور الله، أو على الأقلِّ كلمة عزاء، غير أنَّه لم يلمس شيئًا. وكمنِ ارتاب في عطف الله بالذات، ابتُليَ بنوعٍ من المُعاناة الودِّيَّة في جسمه.

في اعتقادي أنَّ المُلحِدين الحقيقيِّين لا يشعرون بخيبة الأمل بالله. فهم لا يرجون شيئًا، ولا ينالون شيئًا. غير أن أولئك الذين يسلِّمون حياتهم لله، مهما كان، يتوقَّعون شيئًا في المقابل توقُّعًا فطريًّا. فهل تلك التوقُّعات خاطئة؟

مضت مدَّة طويلة لم أرَ صديقي رشيدًا في أثنائها. كنتُ أُصلِّي لأجله بانتظام، ولكنَّ جميع محاولاتي للاتصال به باءت بالفشل. فهاتفه مقطوع، وسمعتُ أنَّه انتقل

من المنطقة. أخيرًا أرسل إليّ ناشرُه نسخةً من كتابه عن أيُّوب، وها هو مستقرٌّ على الرفِّ عندي كتحذيرٍ فعّال من التسرُّع في الكتابة عن قضايا الإيمان.

ثمَّ ذاتَ يوم، بعد نحو ثلاث سنين، التقيتُ رشيدًا مصادفةً في قلب مدينة شيكاغو. وقد بدا أحسن منظرًا، إذ زاد وزنُه قليلًا، وأطال شعره بعض الشيء، وفارقته سيماءُ الارتياب والقسوة. وأظهر سروره لرؤيتي، ورتَّبنا أن نلتقي على غداء.

وبعد بضعة أيَّام، قال لي مبتسمًا إذ وافاني إلى مطعمٍ مكسيكي: "لمّا قابلتُك آخِر مرَّة، كنتُ في هوَّة سحيقة كما أعتقد. فالحياة الآن تُعامِلني معاملة أحسنَ كثيرًا." لقد وُفِّق إلى وظيفة واعدة، ورمى قصَّة حبِّه الفاشلة خلف ظهره من مدَّة طويلة.

وما لبث حديثُنا أن تطرَّق إلى الله، فتبيَّن سريعًا أنَّ رشيدًا لم تُرَدَّ نفسُه بشكل كليٍّ. إذ إنَّ قشرةً صفيقة من السخرية المرَّة باتت تُغطِّي جراحه، ولكنَّه كان غاضبًا على الله كحاله دائمًا.

صبَّت النادلة فنجان قهوة جديدًا، وطوَّق رشيدٌ الفنجان بكِلتا يدَيه، محدِّقًا إلى السائل القاتم المُبخِّر. ثمَّ قال: "لقدِ اكتسبتُ منظورًا معيَّنًا إلى تلك الفترة الحَرِجة. أعتقد أنَّني كوَّنتُ تصوُّرًا عنِ الخطب الذي جرى لي. ففي وسعي أن أذكر لك تمامًا بالساعة والدقيقة متى بدأتُ أشكُّ بالله ولم يكن ذلك في وِيتُن، ولا في غُرفتي ليلةَ سهرتُ مُصلِّيًا". ثمَّ روى حادثةً جرت في أوائل حياته المسيحيَّة.

"لقد أزعجني أمرٌ واحد من أوَّل الطريق: مفهومُ الإيمان. فهو بدا ثقبًا أسود يمكن أن يلتهم أيَّ سؤال صادق. إذ كنتُ أسأل مُرشِد الشبيبة عن مشكلة الألم، فيتدفَّق بكلامٍ عن الإيمان، كأنْ يقول: «آمِن بالله سواءٌ كنتَ تميل إلى ذلك أم لا، فالمشاعر تتبعُ حتمًا». وقد تظاهرتُ بالإيمان، ولكنَّني أستطيع الآن أن أرى أنَّ المشاعر لم تَتْبَعْ قطّ. فأنا إنَّما كنتُ أُمثِّل تمثيلًا.

"حتَّى في ذلك الوقت الباكر، كنتُ ألتمس دليلًا قويًّا على الله بديلًا عن الإيمان. وقد عثرتُ عليه ذات يوم. على شاشة التلفزيون، من بين جميع الأماكن!

فإذ كنتُ أستعرض القنوات كيفما اتَّفق، صادفتُ خدمة شفاء جَماعيَّة تُجريها كاثرين كُولمَن. وعكفتُ على المشاهدة بضعَ دقائق، فيما كانت تُحضِر أشخاصًا مختلفين إلى المسرح وتُقابِلهم. وقد حكى كلٌّ منهم قصَّةً مذهلة عن شفاءٍ خارق، من السرطان أو أمراض القلب أو الشلل، حتَّى بدا الأمر أشبه بموسوعة طبِّيَّة فوق المسرح.

"بينما كنتُ أُشاهد برنامج كُولمن، تلاشت شكوكي تدريجيًّا. لقد وجدتُ أخيرًا أمرًا حقيقيًّا وملموسًا. ثمَّ طلبَتْ كولمن من أحد المنشدين ترتيل ترنيمتها المفضَّلة «قد لمسني». ذلك هو ما كنتُ أحتاج إليه كما تخيَّلتُ: لمسةٌ من الله، لمسة شخصيَّة منه. وكاثرين مدَّت يدها بذلك الوعد، فاندفعتُ أنا للإمساك به".

"بعد ذلك بثلاثة أسابيع، قدمت كاثرين كولمن إلى ولاية مُجاوِرة، فتغيَّبتُ عنِ الكليَّة وسافرتُ نصفَ نهار لحضور أحد اجتماعاتها. وقد كان الجوُّ مشحونًا بالتأثير على نحو لا يُصدَّق: موسيقى أُرغُن خفيفة في الخلفيَّة، وهمهمةُ أُناسٍ يُصَلُّون بصوتٍ عالٍ وبعضُهم بلسانٍ غريب، ومقاطعةٌ مُبهِجة كلَّ بضع دقائق إذ يقف شخصٌ ما ويهتف: «قد شُفِيت!»

"وقد أثَّر فيَّ تأثيرًا خاصًّا رجلٌ من ميلووكي جيء به على نقَّالة إلى الاجتماع. فلَّما مشى- نعم مشى- على المسرح، هتفنا جميعًا بحماسة مُفرِطة. قال لنا إنَّه طبيب، الأمرُ الذي ضاعف تأثُّري كثيرًا. وقال إنَّه كان مصابًا بسرطانٍ رئويٍّ عُضال، وحُدِّد أجَلُه بستَّة أشهرٍ فقط. ولكنَّه الآن، في هذه الليلة، آمن بأنَّ الله قد شفاه. وها هو يمشي أوَّلَ مرَّة منذ أشهُر، شاعرًا بأنَّه في أحسن حال. حمدًا لله!

"دوَّنتُ اسم الرجل، وخرجتُ من الاجتماع وقدماي لا تكادان تُلامِسان الأرض. لم يسبق لي أن شهدت يقين إيمانٍ من هذا القبيل. لقد أنهيتُ مسيرة بحثي، إذ رأيتُ البرهان على إله حيٍّ في أولئك القوم على المسرح. وما دام يستطيع أن يعمل فيهم عجائب ملموسة، فإنَّ لديه بكلِّ يقين شيئًا عجيبًا لي.

"أردتُ الاتِّصال برجُل الإيمان الذي شاهدتُه في الاجتماع. وقد دفعتني

رغبتي هذه، بعد أُسبوع واحد تمامًا، إلى الاتّصال بمقسم ميلووكي للحصول على رقم الطبيب. ولمَّا طلبتُ الرقم، تناهى إلى مسمعي صوتٌ أُنثويّ. فقلت: «رجاءً، أودُّ مخابرة الدكتور سين».

"وبعد صمتٍ طويل، سألتني المُجيبةُ أخيرًا: «مَن أنت؟» فتصوَّرتُ أنَّها تُرتِّب اتّصالات المرضى، أو تُدقِّق في أمرٍ ما. ثمَّ ذكرتُ اسمي وقلتُ لها إنَّني مُعجَب بالدكتور سين، وما برحتُ راغبًا في محادثته منذ اجتماع كاثرين كُولمن، وتأثَّرتُ جدًّا بشهادته.

"ثمَّ كان صمتٌ طويلٌ آخر. وبعدئذٍ تكلَّمتْ بصوتٍ مُفلطَح، ناطقةً كلَّ كلمة نطقًا بطيئًا «إنَّ... زوجي... قد... مات!» تلك الجملة الوحيدة فقط، ولا شيء أكثر، ثمَّ أقفلتِ الخطّ.

"لا يسعني أن أقول لك كيف دمَّرني ذلك. فقد طار صوابي، ودلفتُ إلى الغرفة التالية شبهَ مُترنِّح، حيث كانت أُختي جالسة. فسألتني: «رشيد، ما خطبُك؟ أأنت بخير؟»

"كلاَّ! لم أكُن بخير. ولكنَّني لم أستطع الإفصاح عن الأمر، بل رحتُ أبكي. وحاولَت أُمِّي وأُختي أن تنتزعا منِّي شيئًا من التفسير. ولكنْ ماذا أقول لهما؟ فبالنسبة إليَّ، تلاشى اليقين الذي رهنتُ حياتي به مع تلك المخابرة الهاتفيَّة. إنَّ لسان لهيبٍ قد توهَّج أُسبوعًا مشرقًا واحدًا ثمَّ خمد وخبا كنجم هوى!"

حدَّق رشيد في فنجان قهوته، وقد بدت موسيقى «الماريمبا» التي تُعزَف في الخلفيَّة زائفة وصاخبة. وقلتُ: "لستُ أفهم تمامًا. هل حدث ذلك قبل زمن طويل من التحاقك بوِيتُن وحيازتك شهادةً في علم اللاهوت وكتابتك كتابًا...؟"

فقاطعني: "نعم، ولكنَّ الأمر كلَّه في ذلك الماضي البعيد. فكلُّ ما حصل لاحقًا- وِيتُن والكتاب عن أيُّوب وحلقات درس الكتاب المقدَّس- كان محاولة يائسة لإثبات خطإٍ ما كان ينبغي أن أفهمه من تلك المخابرة عينها. لا أحد موجود، يا فيليب. وإن كان الله موجودًا على وجه الاحتمال، فهو يعبث معنا. فلماذا لا يكفُّ عن ألاعيبه ويُظهِر ذاته؟"

وما لبث رشيد أن غيَّر موضوع الحديث، فقضينا باقي وقت الغداء مُستعرِضَين أحوال السنين الثلاث الأخيرة. وظلَّ رشيد يُصِرُّ على أنَّه سعيد. لعلَّه كان يُبدي اعتراضًا بالغ القوَّة، ولكنَّه بدا بالفعل أكثر سرورًا.

وقُبيلَ الختام، فيما كنَّا نتناول كأسَين من البوظة، تطرَّق إلى لقائنا الأخير. "لا بدَّ أنَّك حسبتني شبه مجنون، إذ قبعتُ هناك وبُحتُ لك بكامل قصَّة حياتي مع أنِّي لم أُقابلك قبلًا قطّ".

فقلتُ: "لا، إطلاقًا. فبطريقة غريبة، لم أتمكَّن من طرد ذلك الحديث من ذهني. وفي الواقع أنَّ شكاويك على الله ساعدتني على فهم شكاويَّ فهمًا أفضل".

ثُمَّ أطلعتُ رشيدًا على الأسئلة الثلاثة. وبعدما شرحتُها، سألته هل تُلِّخص شكاويَه على الله، فقال:

"حسنًا، إنَّ شكِّي كان أكثر من مجرَّد شعور. فقد شعرتُ بأنَّني مخدوع، وكأنَّ الله إنَّما سايرني حتَّى يُراقِبني أسقط. ولكنَّك على حقٍّ، فإذ أُفكِّر في الأمر أرى أنَّ تلك الأسئلة كانت كامنة وراء مشاعري. لقد كان الله ظالمًا على نحوٍ مؤكَّد. وقد تبيَّن لي أنَّه مُحتجِب وصامتٌ دائمًا. نعم، هذا هو الواقع. إنَّه هو تمامًا!"

وبعدما رفع رشيد صوته وأخذ يُلوِّح بيدَيه كما يفعل السياسيُّ، أوِ المبشِّر (ومن الخير أنَّ المطعم كان قد فرغ) قال: "عجبًا! لماذا لا يُجيب الله عن هذه الأسئلة؟ حبَّذا لو يُجيب عن هذه الأسئلة... حبَّذا لو يُجيب عن واحدٍ منها. فلو أنَّه مثلًا تكلَّم مرَّةً واحدة جهرًا بحيث يمكن أن أسمعه، لكنتُ أومِن عندئذٍ. بل ربَّما آمن العالَم كلُّه إذ ذاك. فلماذا لا يفعل ذلك؟"